**أسرة/ الغيرة بين الأبناء.. جنوح وطموح**  
  
**عثمان إسماعيل حسين**  
  
**باحث تربوي – مصر**

|  |  |
| --- | --- |
| |  | | --- | | **الغيرة، كما يفسرها علماء النفس، هي مركب انفعالي تتداخل في توهجه مؤثرات عدة، داخلية أو خارجية، وهي استجابة لمثير ما إذا تعدى مداه أصبح يصارع الشخصية، عقلا أو سلوكا.. إيجابا أو سلبا.**  **والغيرة سلوك نفسي يقتحم عالم الصغار والكبار من الأبناء، حتى إنها تتحول إلى صراع نفسي يودي بهم إلى ضروب القلق والاضطراب وفقدان التوازن في الذات والانفعال، والجنوح إلى كوارث سلوكية غير محمودة العواقب. وقد تكون الغيرة صراعا تجاه عالم الطموح وإشباع الذات بتحقيق ما تصبو إليه وما يتمتع به الآخر من صفات يتمناها الفرد والمجتمع.**  **وقد وردت تلك الظاهرة النفسية في القرآن الكريم، حيث أتت واضحة جلية في «سورة يوسف»، وذلك عندما تهامس وتحاور إخوة سيدنا يوسف -عليه السلام- ووصل تفكيرهم إلى قتله والتخلص منه لما كان له من مكانة متميزة عند أبيه: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ } (يوسف:9)، وهنا تكمن دوافع الغيرة في ممارسة أسبابها بقصد أو من دون قصد، حيث تبدأ مظاهرها في عالم الأسرة، خصوصا الطفولة المبكرة، حيث «التدليل» لطفل دون الآخر. وتزيد المأساة عند إصرار الوالدين أو أحدهما على هذا التدليل والاستمرار فيه، بعد هذا تفقد المسؤولية التربوية للآباء هويتها ودورها تجاه ما هو أمثل وأفضل في التنشئة والتربية.**  **وقد تتحول ظاهرة «التدليل» إلى «التشجيع» في الكبر، ومنح هذا «المدلل» أشياء تحرم على أخوته، فتكتظ نفوس الآخرين كمدا وغيظا وحنقا وحقدا، وتفيض بمؤثرات شتى لتصنع خطوطا حمراء تشوه العلاقة والصلة ورابطة الدم بين الأبناء في الأسرة الواحدة.**  **ومن المؤكد أن هذا التشجيع تزيد سلبياته المدمرة للغير عندما يتحول إلى صفة «التمييز» بالمقارنة بينه وبين إخوته، بمعنى أنه المتضرر في المحاباة والمجاملة والاستثناء من الوالدين في الملبس والمأكل والتعليم والإقامة (حيث تخصص له حجرة مستقلة أحيانا) على سبيل المثال.**  **تلك الأسباب ترتكبها الأسرة في حق أبنائها بما تعيشه من عدم ممارسة الثقافة المثلى في التربية، وفقدان ممارسة ميزان العدل الأسري، والتسرع في إصدار الأحكام على شخصية أبنائها؛ التفخيم أحيانا والتحقير أحيانا أخرى.**  **أما عن أسباب الغيرة (الذاتية والمجتمعية) فهي تتمثل في «الفقد» على سبيل المثال، وهي فقدان الطفل لوالديه أو أحدهما، فتسيطر عليه الغيرة ممن يتمتع بدفء وأحضان ورعاية والديه، تربية ومراعاة وعناية وعطفا وحنانا، أو عندما يتعايش مع ألم وقسوة المنظر عند مغادرته مدرسته وهو ينظر إلى زملائه الذين ينتظرهم آباؤهم، حيث الابتسامات والأحضان والقبلات الأبوية الدافئة وألوان الاطمئنان، بينما هو يجد نفسه وحيدا محروما من مذاق الأبوة، حنوها وأمانها.**  **أما الحرمان الذي يعيشه الطفل، طبيعيا أو مكتسبا، بمعنى أنه يجد نفسه وقد نشأ فقيرا لا يستطيع أن يجاري أقرانه في نمط حياتهم، أو أنه ضحية أب أو والدين اتخذا من البخل شعارا لهما، فكان الطريق إلى تلك الغيرة، حيث صنوف الحسد والحقد.**  **وقد تكون «الفروق الفردية» عاملا طبيعيا في إيقاظ الغيرة في نفوس الأبناء، حيث تتباين نسب الذكاء والاستيعاب والفهم والمهارات والقدرات المهارية والابتكارية، وقد تختلف أيضا في مواجهة المواقف المختلفة وحسن التصرف لمن يتمتعون بتلك الصفات، وإحساسه تجاه الغيرة بفقده لها، نظرة تخبئ وراءها العديد من الصراعات وعلامات الاستفهام التي تلقي به في عالم التأسي والتأزم.**  **ومن المؤكد أن أسباب الغيرة كفيلة أن تدفع بصاحبها إلى عالم الجنوح وفقد توازن الشخصية، مما يجعله يرتكب في حق نفسه آثارا جانبية تكمن في نمو الصراعات النفسية وسيطرتها على طبيعة النفس البشرية، حيث تكتظ بصنوف الحقد والحسد، والإحساس بالفشل، وفساد الشخصية وفقدان هويتها، والبغض والضغينة تجاه الطرف الآخر.**  **وقد تصل آثار الغيرة، التي يتولد عنها الحقد، إلى التفكير في سبل الانتقام، بعد أن فقدت التركيز والاتزان وقد غلبت عليها وحشة الانطواء وحدة النظرة وقوتها تجاه المجتمع، حتى تصبح مرضا نفسيا يؤدي إلى تدمير الذات وإصابتها بالقلق السلوكي، وما يصاحبها من قهر واضطراب وعدم اتساق وتناغم في معطيات الشخصية، سلوكا وانفعالا.**  **أما الغيرة المحمودة ففي الغالب تكون نابعة من الشخص ذاته نتيجة مؤثر خارجي استحوذ عليه، فينمو داخله التطلع والطموح اللذان يرقيان بالطفل مستقبلا.**  **على سبيل المثال الغيرة في فضيلة «العلم» والأخلاق والتجارة الرابحة المشروعة، أو الغيرة ممن يتمتعون بالاستقرار الأسري والمجتمعي الشريف، أو الغيرة ممن يحفظ القرآن ويتلوه كسلاسل الذهب، أو ممن يمارس عبادته لله تعالى حق عبادته.**  **وهذا الصنف من الغيرة المحمودة يحتاج إلى بذل الجهد في تشجيعها ورعايتها وتنميتها، خصوصا إذا كان الأبناء يملكون ويتمتعون بالمهارات والاستعداد لما يحقق الهدف من وراء تلك الغيرة من أحلام وأمنيات وطموح محمودة آثارها.. وهنا تبرز مسؤولية الآباء وثقافتهم التربوية والنفسية تجاه هذا النوع من الغيرة، التي تستلزم الفطنة والملاحظة والرعاية للوصول إلى ما ينبغي أن تكون عليه.**  **وهذا يتطلب دقة ومهارة الحوار والتفاهم مع الأبناء، وفتح أبواب النقاش المثمر، والإعداد الجيد للطفولة بمراحلها المختلفة، ومحاولة صقلها أولا بأول، وإشباع رغباتها وتنميتها بما يتناسب وما يتمتع به من قدرات وإمكانات.**  **ولكي نتجنب الآثار السلبية للغيرة لابد أن نضع نصب أعيننا الوصايا الآتية:**  **> محاولة تجنب ظاهرة الإفراط في التدليل لطفل دون آخر في الطفولة المبكرة والمتأخرة، قولا وفعلا، أيا كانت الأسباب والدوافع.**  **> إقرار وتفعيل ميثاق الألفة والمحبة والمودة بين الجميع، وتجنب محاولات تعكير الصفو وتكدير النفوس بين الأبناء.**  **> معايشة الآباء لأبنائهم، وجعلهم يتنفسون عبق الأبوة في عدالة بين الانفعال والسلوك، بما يؤكد إيجاد هوية المسؤولية التربوية للآباء، وبما يتمتعون به من ثقافة سلوكية ونفسية تجاه أبنائهم.**  **> تشجيع الأبناء، كل حسب قدراته ومهاراته، من دون تمييز أو تفريق أو محاباة أو استثناء، وتجنب إيحاءات ألفاظ الإحباط وتثبيط الهمم.**  **> محاولة إشباع الأطفال والأبناء في مراحلهم العمرية المتتابعة بالنزعة الدينية القائمة على غرس خلق الإقناع والاقتناع، وأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء بقدر وبميزان محسوب ومعلوم، وما على الإنسان إلا السعي بما يتناسب وطموحه وقدراته وإمكاناته.**  **> مراعاة الفروق الفردية بين الأبناء، كل حسب ما يتمتع به من إمكانات في المهارات، لتحقيق ما يتناسب معها من طموح واستغلال استعداده النفسي والمهاري.**  **> إقرار وتفعيل ميثاق العدل الأسري، كما أقره ووضحه ديننا الحنيف بين الأبناء، رعاية وتربية وتعليما وميراثا.**  **> ملاحظة الأبناء المستمرة، والمراقبة والتدقيق بشدة تجاه ميولهم ورغباتهم في ظل حوار وجلسات أسرية دافئة، وتحت رعاية أبوية صحيحة تجمع بين طموح الأبناء وحرص الآباء.**  **ونهاية الأمر أنه إذا تمكنت ظاهرة الغيرة السلبية من صاحبها واستسلم لها، فهي ناقوس خطر تنذر دقاته بدمار نفسي وفقدان ذات كان من الأفضل أن يكون الطموح طريقها، وتحقيقه هدفا تسعى إليه النفس البشرية، إرضاء وطمأنينة وإشباعا لذاتها.**  **وإذا كانت الغيرة سلاحا ذا حدين، فهي تمثل عبء المسؤولية التربوية على كاهل الوالدين، وأرقى أنماط الأمانة في التربية والمعالجة النفسية لها بغية المحاولة الجادة للوصول إلى أرقى الأهداف والنتائج.** | |